

مكتبات عربية في الشرق والغرب للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

المكتبة العربية قديمة في تاريخ الأمة العربية ، ومتى وجد الكتاب وجدت المكتبة . فالمكتبة مجموعة من الكتب يضم بعضها إلى بعض ، ويتكون من مجموعها ما يسمى « بيت الحكمة » في العصر العباسي ، و « خزنة الكتب » في العصر الفاطمي ، و « دار الكتب » أو « المكتبة » في العصر الحديث .

وفي العصر الأموي نجد ذكراً لخزائن الكتب التي أخرج منها الخليفة عمر بن عبد العزيز كناش هرون . ولعل تلك الخزائن هي النواة الأولى للمكتبة العربية الإسلامية

اشتهرت بغداد في عصر نهضتها العلمية بدار كتب عظيمة يعرفها المؤرخون باسم « بيت الحكمة » ويسمونها وزير المعارف على باشا مبارك في كتابه (علم الدين) « دار الحكمة » ، ويروي في هذا الكتاب الشائق كيفية استجلاب الكتب من خزائن الروم بعد امتناع ملك الروم من إنفاذ ما اختاره المأمون من نفائسها . فأنفذ المأمون جماعة منهم : الحجاج بن مطر ، والبطريق ، ويوحنا بن ماسويه^(١)

وكانت تلك الدار أشبه بجماعة للعلم يجلس فيها المؤلفون والمترجمون والنساخون والمطالعون . وكان للفرس مشاركة طيبة في نهضة دار الحكمة المأمونية ، كما كان خدمتها والترددون عليها من الفرس وأكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ، مثل إعلان الشعوبية النسابة الذي ألف كتاباً في مثالب العرب^(٢) وعسى أستاذنا الجليل إسعاف النشاشيبي يدلنا على نسخة من هذا الكتاب يغنيننا عن مثالبه هو للعرب في مقالته عن حكاية الوفود الكسروية التي يستكبرها على آباءه الأكرمين !...

ومن دور الكتب الشهيرة في الشرق مكتبة الأمير نوح

ابن منصور الساماني^(١) صاحب خراسان وأمير بخارى . وكان الوزير أبو علي الشهير بابن سينا قد برغ في علم الطب ، فذكر عند الأمير نوح ، وكان قد مرض فأحضره وعالجه حتى برى . واتصل به ودخل إلى دار كتبه ، وكانت عديمة المثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها ما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه . فظل ابن سينا فيها يكتب من علم الأوائيل^(٢)

اقتدى أهل الأندلس بالشارقة في إنشاء دور الكتب . فأنشأ الحكم بن الناصر مكتبة حافظه جمع لها الكتب من نواحي العالم ، وبذل في سبيل شرائها مالا كثيراً . وكان يُغري المؤلفين بالذهب ليشتري منهم مؤلفاتهم ويضعها إلى خزائنه ، فقد ذكروا أنه بذل لصاحب الأغاني ألف دينار من الذهب ليرسل إليه كتابه قبل أن يبعثه إلى الخليفة العباسي بالشرق ، كما ذكر المقرئ صاحب نفع الطيب كثيراً من أخبار الحكم في هذا السبيل ، وفعل ابن خلدون مثله في الجزء الرابع من تاريخه ولم تقل مصر والشام عن بقية بلاد المشرق وسائر بلاد المغرب في جمع الكتب وتنظيم المكتبات . فالعزير الفاطمي بنشئ « خزنة الكتب » ، ويجمع لها الكتب بمعمونة وزيره يعقوب ابن كلس ، ويجمع من الكتاب الواحد نسخاً عدة قد تبلغ المائة . وللعزير في الجزء الأول من خططه كلام كثير في هذه الخزنة^(٣)

ولقد نكبت المكتبات العربية بالتتار والصليبيين في الشرق وبالفرنجية في المغرب . ويروي ابن الفوطي المؤرخ المعاصر لغارة التتار على بغداد كيف أحرقت الكتب وأغرقت وبيعت بأوهي قيمة^(٤)

ويروي ابن الأثير كيف أحرقت المكتبة التي أنشأها

(١) هكذا اسمه في تاريخ التمدن ، وفي « علم الدين » نصر بدلا

من منصور

(٢) « علم الدين » لعل مبارك

(٣) المقرئ ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ ووفيات الأعيان وابن خلدون

(٤) التجارب النافعة في حوادث المائة السابعة لابن الفوطي طبع ببغداد

ص ٢٣١

(١) « علم الدين » لعل باشا مبارك

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٦ و ٢٠٢

وفينا وروما ومدريد . وأخذت الولايات المتحدة في أمريكا - في مطلع هذا القرن - تهتم بالدراسات الشرقية وتنشئ مجامعها أقساماً للغة . الشرقية في جامعاتها الكبرى . مثل جامعة شيكاغو التي تصدر مجله :

Journal of Near Eastern Studies

ومثل جامعة كولومبيا التي تعنى بالدراسات العربية وترجم أهميات التاريخ الإسلامي إلى الإنجليزية كما فعلت في كتاب فتوح البلدان للبلاذري الذي ترجمه الدكتور فيليب حتى السوزي

الأصل ، والأستاذ الآن بجامعة الولايات المتحدة

ولقد زار بعض النابهين من أبناء البلاد العربية هذه المكتبات العربية في أوروبا وتحدثوا عنها في كتبهم ؛ كما فعل الشيخ رفاعة الطهطاوي في كتابه « تخليص الأبريز إلى تلخيص باريز » وكما فعل أحمد فارس الشدياق في كتابيه « الواسطة في أحوال مالطة » و« كشف الغبا عن فنون أوروبا » ، وهما من مطبوعات الجوانب بالآستانة ، وكما فعل أمين فكرى بك في كتابه المتع الفيد « إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا » المطبوع بالمقتطف سنة ١٨٩٢ ولقد حدث الشيخ محمد محمود الشنقيطي : أنه لما أرسل من الآستانة إلى أوروبا لمشاهدة دور الكتب (وجد فيها كثيراً من الكتب العربية القديمة المهددة بالموت المدومة الوجود في بلاد الشرق على العموم)

ولعل باشا مبارك في كتابه علم الدين وصف شامل لمكتبة عربية خاصة في باريس ذكر أسماء بعض ما فيها من نوادير الكتب في التفسير والحديث والتوحيد والفتاوى واللغة ووصف عناية صاحبها بترتيبها وتنسيقها وحسن استعماله لها فيها . إلا أن أمين فكرى بك كان في كتابه السابق الذكر أكثر الرحالين من العرب عناية بالمكتبات العربية العامة في أوروبا فهو يصف كل واحدة منها وصفاً دقيقاً ، فيصف مداخلها ومخارجها ورفوفها وأنضادها ، وعمالها والقائمين عليها ، ونظام الاطلاع فيها ، وينقد ما يراه موضعاً للنقد كما يذكر مواضع الإحسان فيثنى . ومن عجب أن المكتبة الأهلية في باريس على عهد - ١٨٩١ م - لم تكن على الحال التي عليها اليوم . فهو يقول عن قسمها الشرقي (توجهنا إلى مأمور القسم وطلبنا منه فهرست الكتب العربية

سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة عند ما دخل السلجوقيون بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١)

كما يذكر جيبون المؤرخ كيف أحرق الفرنجة مكتبة طرابلس الشام عند ما فتحوها سنة ١٥٠٢ . ويذكر مؤرخو المسلمين أن البطريق إيكرامينيس أمر بإلقاء الكتب العربية في النار عند ما دخل الفرنج غرناطة في القرن الخامس عشر الميلادي ...

وفي العصور المتأخرة نرى الأمم الغربية تتنافس في جمع الكتب العربية وترتيبها بحسب موضوعاتها ، وتميّن لتنظيمها المختصين من المستشرقين الذي درسوا فن تنظيم المكتبات على قواعد صحيحة . ومن الإنصاف للتاريخ والحق أن تقول إن فكرة العناية بإنشاء المكتبات العربية على وجه الخصوص والشرقية على وجه العموم ترجع إلى مدينة « روما » ، فقد انتشرت بين أغنياء تلك المدينة التاريخية بدعة جمع الكتب الشرقية في العصور الوسطى . فأصبح أرباب الإيطاليين ينافس بعضهم بعضاً في الجمع ، ويكافئ بعضهم بعضاً في الاقتناء لارغبة منهم في العلم ولاحبا في الطالعة ، ولكن ميلاً إلى التكاثر والباهاة كما يصنع المترفون من عشاق التحف وجامعي الألفاظ ولولم يعرفوا قيمتها أو يدركوا حقيقةها (٢)

أخذت فكرة جمع الكتب العربية تنمو في بلاد أوروبا المختلفة ، ومع مرور الزمن واتصال الشرق بالغرب ، وحبّ الفريقين في الوقوف على تاريخ الشرق القديم وتبع تطوره ، وشغف هؤلاء بارتياح المجهل الشرقية لأغراض سياسية أو لمآرب دينية - مع ذلك وغيره من العوامل تغيرت فكرة جمع الكتب الشرقية من مجرد الباهة والتكاثر والتفاخر وترتيب القصور إلى فكرة الاطلاع والدرس والبحث والتنقيب والتقدير بما يتفق مع مصلحة الغربيين لا الشرقيين

فأنشئت دور كتب عربية عامة وألحقت بالمكاتب الأهلية العامة في العواصم الأوروبية الكبرى كلندن وباريس وبرلين

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤٥

(٢) مجلة روضة المدارس المصرية